حارس ليالي القصر

اثَبتْ يا جاد الكريم ولا تنم وكن يقظاً، فالقصر الآن أمانة في عنقك، والأمانة ثقيلة كما تعرف. البيك غادر مع عائلته اليوم صباحاً في إجازة لأيام عديدة، وكذلك غادر البستاني العجوز والطباخ الوَقِح والخادمة الجميلة ولم يبقَ سواك هنا لتحرس هذا القصر الكبير، فاثَبتْ وكن بحجم مارُمي على عاتقك من مسؤولية كبيرة. من اليوم وحتى مساء بعد الغد فأنت سيد هذا القصر وجنانه الخضراء النضرة، أنت هنا كل شيء الآن، وقد بات المكان بما فيه يأتمر بأمرك أنت وحدك، ولن يعلو صوت فوق صوتك يا جاد الكريم.

قُم من على سريرك الخشبي المتهالك في غرفتك الصغيرة عند البوابة الرئيسية، وامشِ هنا وهناك في جنبات هذا القصر وزوايا حديقته المظلمة، فلعل السارق الخبيث أ ن يأتي من أماكن أنت تعرفها جيداً بعد خمس سنوات قضيتها في حراسة هذا المكان. امشِ الهوينة وتنحنح يا جاد الكريم، فصوتك الأجّش قد يرعب كل من تسو ل له نفسه أن يقترب من سور القصر. امشِ بحذر وصمت، ودع عينيك تراقب كل حركة حولك، ولا تَأمنّ سكون الليل، فالليل ساتر العيوب ومخبأ الويلات يا جاد الكريم، وإيّاك ثم إيّاك الغفلة، فهذا القصر الجميل الآن أنت حارسه وأمينه، وتذكّر قول البيك لك بلهجة صلفة قبل يومين:

- سنسافر في رحلة استجمام لثلاثة أيام، لن يبق في القصر سواك، فكن حريصاً عليه، واحذر.

نعم، نعم، فالبيك وضع ثقته بك، وكل أمله أن يبقى قصره بخير معقود عليك أنت، صحيح إنه رفع سبابته بوجهك وهدّدك بالعقاب إن بدر منك أي تقصير، وأقسم بشرفه أن يربطك بشجرة السرو هذه إن حدث أي مكروه لقصره في غيابه، لكنه وثق بك على أي حال ومضى في رحلته آمنا مطمئناً، ومضى كذلك الخدم معه، وانطفأت الأنوار وبقيت أنت وحدك يلفك صمت هذا القصر وحديقته الكبيرة الرائعة بوقار وجلال كبيرين. نعم اعتدت هذا منذ الخمس سنوات التي مضت، لكن هذه هي المر ة الأولى التي تجد نفسك فيها يا جاد الكريم وحيداً تختال بمشيك كالطاووس في الحديقة والردهات المترفة وكأنك السلطان، نعم السلطان، ولما لا يا جاد الكريم..؟، أتصدق ما قالته لك زوجتك المجنونة بالأمس:

- يا رجل اعقل، إذا البيك قال لك بأن القصر أمانة عندك فهل أصبحت بيكاً..؟، أنت جاد الكريم وستبقى كذلك حتى لو حرست القمر.

غبية زوجتك هذه فلا تعطها اهتمامك، والبيك الآن بعيد ويستمتع بإجازته وقلبه يغمره الاطمئنان والسكينة بأن قصره في يدٍ أمينة مثلك يا جاد الكريم، فكن حذراً، وكن بحجم ثقته، ولا تنم ولا تغفو خلسة كما تفعل في بعض الليالي، فالآن أنت بمفردك هنا، والقصر خاوي على عروشه، والأطماع تحدّق به من كل حدب وصوب، وربما بعض اللصوص المّكرة يعرفون بأن حارس هذا القصر عجوز ستيني متهالك أنهكته السجائر وأنهكه السهر، لكنك يا جاد الكريم تملك البندقية، نعم البندقية، ومحشوة هي بست رصاصات كل واحدة منها تقتل الدبّ إن مسّته مساً طفيفاً، فلا تخف ولا تخش أي شيء، وفقط كن يقظاً ولا تغفو ولا تبق جالساً في غرفة محرسك، فهناك الدفيء والسكون يتربصان بك وقد تنام كما حدث قبل

ذلك كثيراً وتغفل عن الحراسة، وإن غفوت وحدث أي شيء فالبيك يا جاد الكريم قد أقسم بشرفه ليربطنّك في شجرة الصنوبر هذه. تنحنح واضرب بعصاك الأرض، واجعل الفزع يدّب في قلب من يحاول الاقتراب من قصرك المنيف، قصرك يا جاد الكريم نعم، هذا قصرك الآن، فالبيك ليس هنا وزوجته سليطة اللسان أيضا ذهبت وكذلك طفلاه المزعجان، لا يوجد أي بشر هنا غيرك أنت فلماذا لا يكون هذا القصر قصرك أنت..؟، ألستَ من حّرَسَ هذا البناء الرخامي الضخم وهذه الحدائق الغنّاء لسنوات طويلة..؟، حتى وإن كان البيك ينسى اسمك و يظنك البستاني في بعض الأحيان لكنك الآن أنت حارسه الذي تَردُ عن حياضه الأذى شاء من شاء وأبى من أبى، أليس كذلكَ يا جاد الكريم..؟، إذاً ارفع صوتك بالأوامر عالياً، فالكل حولك سينصاع لامحالة، وصوتك الجهوري سيرعب الجميع حتى وإن كان ما يزال لا يرعب زوجتك بل يضحكها إن رفعته بوجهها، لكن هذا في البيت أما هنا وفي هذا الصمت الثقيل فصوتك سيدوي في الأرجاء كدوي الصاعقة. ادخل قصرك وتسكّع في طرقاته الفخمة، هذا المطبخ حيث يصول ويجول به الطباخ الوّقِح، إن طلبت منه بعض الطعام الآن وأنت سيد القصر فهل سيتجاهلك كما يفعل دائما..؟.

وهذا الحمّام، أحمام هذا وهو بحجم بيتك يا جاد الكريم..؟، ما هذا البيك الجشع..؟. لوحات وأواني خزفية وسجّاد تغرق القدم به. جدران ملساء كخد الخادمة مطلية بألوان زاهية، هل دخلت قبل اليوم إلى هنا يا جاد الكريم..؟، نعم كثيراً، لكن رأسك يكون مطأطئاً ولا ترى سوى صورتك في رخام الأرض وأنت تتلقى الأوامر والتنبهات أو التعنيف من سيدة القصر الشمطاء. أه كم هي عزيزة أمنيتك بأن تمسك بتلك المتصابية ولو لمرة واحدة وأن تفعل بها فعلك المجنون أيها

المجنون، أفكارك شيطانية يا جاد الكريم ولا تليق بعجوز مثلك فاحذر أن تشتم زوجتك أفكارك هذه، احذر.

هذا الدرج العالي يصل بك إلى الطابق الأعلى حيث تنام العائلة الغنية كما تعرف من حديث الخدم العابر، خلف هذه الأبواب الخشبية الموصدة بإحكام ينام البيك وعائلته، وخلف أحدها يمتطي زوجته الشمطاء في لياليه المخملية، وّغد يركب وغدة يا جاد الكريم، وكفّ عن عبث المخيلة المتصابي فقد كبرت على هذا وأصبح عمرك في أرذله.

الطرقات هادئة، وأركان القصر محشوة بالعظمة والفخامة، والثراء الفاحش يقطر من كل بقعة هنا. واحدة من هذه التحف الفاخرة تطعمك خبزاً لعام كما يقول الطباخ الوّقِح، ولوحة واحدة من هذه اللوحات المعلقة على الجدران بغباء تشتريك بماضيك يا جاد الكريم، وتتساءل لماذا البيك متعالي ويمشي الخيلاء ويعامل الجميع كالعبيد..؟، وأنت يا جاد الكريم الآن العبد الأكثر ظلماً إذ الكل نيام وأنت يقظ وتحرس هذه التفاهات لهذا البيك الأهبل، إن أحرقتَ له كل شيء الآن فهل هذا يبدد شعورك بالعبودية الذي لازمك لسنوات طويلة..؟، خمس سنوات وأنت تحتمل من البيك كل الجفاء ومن ثم الجفاء، وهانمه الشمطاء تصرخ بك كلما خرجتْ أو دخلتْ من باب قصرها هذا، وطفلاه يزعجانك في سكينتك ووحدتك العزيزة، خُذ مكانه الآن واصرخ بالجميع هنا، ولا ترحم الطباخ والبستاني والخادمة، وحتى ذلك الحارس الذي يقبع كالقرد في غرفته عند باب القصر، لا ترحم أحداً يا جاد الكريم فأنت الآن سيد هذا المكان، وانظر في كل هذه العظمة المحيطة بك، هي الآن لك وحدك وأنت هنا السيد الكبير، البيك، الآمر والناهي، وأنت وحدك من يحق له أن يصرخ ويشتم الآخرين. انظر إلى نفسك في هذه المرآة الكبيرة،

قسماتك جادة وتجاعيد وجهك ارستقراطية توحي بأنك خلقت لتكون سيداً يا جاد الكريم وليس حارس قصير وضيع، تمعّن في ذاتك وارفع رأسك عالياً بشموخ إذ أنت السيد الآن، ولتأتي زوجتك الغبية لتراك وأنت في قمة مجدك هذا، فهل سترفع صوتها بوجهك بعد اليوم أو تسخر من كل ما تقوله..؟. نادي الجميع يا جاد الكريم، الآن وبأعلى صوتك نادي الجميع، اسمع الصدى حيث تتقاذفه الجدران ويدوي في فراغ هذا البناء الضخم، لا خوف من ذلك فالسارق إن كان يقترب الآن من القصر وسمع صوتك هذا فقد بالَ تحته ولاذ بالفرار. الآن ترى وكأن الجميع أمامك هنا، مخلوقات بائسة تكاد أن تسمع أسنانها تصطّك ببعضها البعض خوفاً ورعباً يا جاد الكريم، فأنت الآن البيك وهم العبيد، تراهم واقفين مطأطئ الرؤوس أمامك: الطباخ والبستاني والخادمة اللذيذة، أين ذلك الحارس الكسول يا جاد الكريم..؟، تصيح بهم بعالي الصوت:

- جاد الكريم، أحضروا لي ذلك الوغد من محرسه.

ويأتيك الحارس مهرولاً ومتعثراً بمعطفه الطويل ويقف مع الواقفين ويحدق كما يحدقون في الأرض الرخامية. الصمت يرفرف فوق الرؤوس وأنت البيك الآن، وحدك من يحق له أن يتكلم ويسعل ويعطس ويغني ويبكي والجميع سكوتا. من أين ستبدأ بتلقينهم الدرس يا جاد الكريم..؟، من الطباخ الوّقِح..؟، لا فقد يحنّ قلبه عليك يوماً ويأتيك بأطايب الطعام إلى محرسك كما تتمنى وترجوه كثيراً، فدعه. هل أوبخ البستاني..؟، عجوز متهالك هذا يا جاد الكريم ولا يلقى صوتاً واحداً، دعه وشأنه فالثرثرة معه في بعض الأحيان تريح قلبك وتبدد كربك وهمّك. إذاً الخادمة الجميلة يا جاد الكريم، وكيف تعنف الورد وتهز سكونه..؟، وكيف بجمالها ستصرخ يا جاد الكريم..؟، دعها فربما تحنّ عليك يوماً وتستجيب لنهم عينيك

كما تتمنى في خلواتك الشيطانية. بقي هذا الحارس العجوز فلا ترحم به ولا عظمة يا جاد الكريم. تصرخ بصوت هزّ أركان القصر:

- جاد الكريم، يا ابن الرذيلة، اقترب مني.

تبتسم بمكر وقد أربك الخوف أعماق هذا البائس المسكين، تشير بسبابتك فينصرف الجميع وتختلي بالحارس يا جاد الكريم، تذكّر بأنك أنت البيك الآن وعليك معاقبته على ما يرتكبه من جُنحات لا يعلم بها أحد غيرك، انظر إليه في المرآة الكبيرة، لا تشفق عليه ولا يخدعك مظهره البائس، لا شفقة معه لأنه ماكر وخبيث وإن بدت عليه الطيبة، وأنت الآن البيك ويجب أن تضع حداً لما تعرفه عنه. تلقي عليه نظراتك المتفحصة فيتقصّد جبينه عرقاً ويطرق أرضا وهو يعبث بأصابعه وعيناه زائغتان في نقوش رخام الأرض الجميلة، خجول منذ طفولته هذا الحارس فكيف مضى به العمر حتى أرذله ..؟، وكيف أنجب أولاده من زوجته..؟. من أين تبدأ..؟، تصرخ به بصوت عالي:

- جاد الكريم، إني أعرفك جيداً، أكثر مما تعرف نفسك أنت.

تضطرب حركاته، وصوتك المرعب يقول:

- إن كنت تظن نفسك بمأمن من عيوني فأنت مخطأ، أنا هنا سيد هذا المكان وأعرف كل شيء يحدث فيه في الخفاء.

يزداد اضطرابه وعرقه وصمته، وبعد برهة صمت وجيزة تقول له:

- أنت حارس هذا القصر، وأميناً على أرواحنا وممتلكاتنا وإذا بك تنام خلال عملك يا غبي..؟، أهذه لقمة الحلال التي تفاخر فيها الناس حولك وتطعمها لأبنائك..؟.

الحارس المسكين يكاد أن يغمى عليه أمامك وقد آوى إلى الصمت وبدت عليه ملامح الاحتقان والأسف، ويستمر توبيخك له:

- وأعرف بأنك حاقد، وتشتمنا في قرارة نفسك، وتدعو علي وعلى أطفالي بالفناء. أيجوز هذا أيضا..؟، قلت لك بأني أعرف كل كلمة تنطق بها في ذاك المحرس القذر أيها القذر، وأعرف كل المعرفة ما يجول في خاطرك وما تشتهيه نفسك الدنيئة.

ند ت عنه همهمة مضحكة وهو يقول:

- سامحني يا بيك.

- على ماذا أسامحك ..؟، على إخلاصك في العمل، أم على دفء لسانك وضميرك وقلبك اتجاه صاحب رزقك..؟.

توسّل إليك بهمهماته وأنت تبتسم على منظر انكساره، يجب أن تلقنه درساً يقوّم حاله، لأن فراغه ووحدته تجعلان منه شيطاناً لا إنسان. يسود الصمت قليلا وتقول له:

- ثم إني أعرف أفكارك البذيئة اتجاه الخادمة، ألا تخجل من نفسك وقد بلغ بك الكبر عتيا..؟، هل أذكّرك بالليالي التي كنت تتلصص عليها من نافذتك كلما خرجتَ أو دخلتَ..؟، أم أصف لك كيف تحلم بها في وحدتك أيها الفاجر المراهق..؟.

اصطبغ وجهه بحمرة الخجل، يكفي هذا يا جاد الكريم وقد كسرت المسكين أمامك، دعه فكاد أن يذوب في ثيابه الرثة

هذه، لكنك تبتسم بمكرٍ منتشياً بنشوة السلطة التي تتغلغل في ثنايا في روحك القلقةً والجبروت يغريك للبطش، ونفسك لم تُشبع ساديتها بعد فصرخت عليه بعد فترة لم تسمع فيها إلا نحيبه واعتذاره:

- اخرس ولا تختبأ خلف دموعك، أعرفك حق المعرفة يا جاد الكريم، وأعرف أفعالك التافهة في حديقة القصر وكيف تسرق الفاكهة وتخبأها في ثيابك لتأخذها إلى بيتك. وأعرف كيف تراودك نفسك على السرقة، وأسمع همسات شيطانك ووسوساته لكي تؤذي القصر ومن فيه، ولكن حذاري يا مجنون، حذاري من بطشي إن فعلت وانقدتَ لشيطانك الوسواس.

صمتٌ كصمت المقبرة، والظلام تكسره بعض الأنوار المنتشرة في جنبات حديقة القصر. تزداد تجهماً ويزداد هو انكساراً وذلاً، وما زلت تحدّق به في المرآة الكبيرة. عيناك الحادتان مغروزتان في عمق عينيه المندهشتين، حجمك يكبر ويزداد هو ضآلة، وتبدو أمامه كمارد وهو بدا كالذبابة أمام قدميك. يستنجد رحمتك فلا يجد منك إلا صمتاً ووجهاً مُكفهراً ، يهرول نحو الباب ويفتحه فينساب ضوء فضي خافت، هو نور القمر، ومعه تتسلّل نسمة باردة تحمل رائحة الياسمين الذي يتضوع شذاه في الحديقة. تلتقي عيناكما، كالنار كانت نظرتك ملتهبة، ونظرته كانت كالحطب جافة، فيشتعل الصمت بينكما، ولا يقدر على نيرانك فيغلق الباب ويهرول بسرعة نحو محرسه، يدخل ويغلق الباب بإحكام، وأنت تبقى تهيمن على ذاكرته حتى تلاشيتَ مع دخان سجائره الكثيف بعد أن انزوى في زاويته يدخن مضطرباً، ولسانه يتمتم بأدعية وتوبة واستغفار.

وقد مضى الهزيع الأول من الليل حتى استطاع جاد الكريم أن يستعيد نشاطه ويطل برأسه من محرسه مجدداً وقد بدا إنه منهك الروح وشارد العقل وتائه النظرات. ومضى يمشي في جنبات القصر وحديقته وهو يلعن النوم، ويلعن لسانه الثرثار، ويلعن كذلك الخادمة الشهية والفقر الذي أجبره على أن يلوك في مخيلته كل تلك الأفكار السوداء.